ـطي» طرابلس

تسبّبت ذبحة قلبية بشلل مؤقت لأسعد أقعده منذ ثلاثة أشهر (مروان بو حيدر)

الإسلامي. المسيحي الذي كان قائماً «في الخمسينيات، كنا نقيم في منطقة التربيعة، قرب شارع الكنائس، واتذكر أن عدداً من جيراننا كانوا من اليهود»، فيما يحكي أبو سليم، عن مدينة لم يكن عدد سكانها يتجاوز الـ 75 ألفاً «كلّ الناس فيها يعرفون بعضهم بعضا». وبحسب أسعد «في السابق، كان إذا واحد انضرب كف بأول طرابلس كل طرابلس تعرف من الذي ضربه، اليوم نحكي عن 16 قتيلاً في الشارع ولا أحد يعرف من المرتكب».

في تلك المرحلة، كانت طرابلس المدينة التي قال عنها «بلد خْطَيْ»، كما يذكر أسعد. يشرح «كلما قدم شخص إليها للعمل، كانوا يقولون خْطَيْ بدو يعيش». كانت العلاقات بين الناس مختلفة «كان جار الإنسان أهم من أخيه».

يتذكر أبو سليم أن طقوس شهر رمضان كانت مختلفة « كانت أمي تطبخ طبخة واحدة، لنفاجأ قبل أن يضرب مدفع الإفطار بوجود ستة أطباق مختلفة أرسلها إلينا الجيران. كان إذا حدا بالحي متضايق، يتضامن الجيران ويوفّرون له المال. أما اليوم، فبتّ لا أعرف أن جاري توفي إلا بعد رؤية ورقة تنعاه على باب المصعد».

هذا التفكك في العلاقات، هو الذي يولّد الحروب برأي أبو سليم، الذي يستعيد القصة الشهيرة عن قرار غزو تيمورلنك للشام، بعدما تأكد أن أهل المدينة لم يعودوا متضامنين. أما ما يحصل اليوم، فسببه «كم واحد غني، لا يفكرون كيف يساعدون أبناء المدينة العاطلين من العمل، بل كيف يكونون زعماء. لو أنا مكتفي، ولديّ عمل أخاف عليه، فلمَ سأحمل البارودة؟».

حرش البلان

ما يقوله شكري عن التعايش الطائفي في المدينة غير دقيق، وخصوصاً بعد أن نستمع إلى رواية أبو سليم لكيفية اختياره أسماء أعضاء الفرقة، وحرصه على أن تكون بعيدة عن مدلولاتها الطائفية: «كان يمكن أن تحصل حرب أهلية إذا دلّ اسم معين إلى شخصية سيئة».

أبو سليم، الذي مارس التمثيل في فرقة الكشافة في منتصف خمسينيات القرن الماضي، كان اسمه أبو حسين في أدوار سبقت التحاقه بالتلفزيون عام 1960. وكان لأبي حسين، جارّ اسمه ابو طنّوس. فصار يتعرّض لانتقادات من متابعيه «ليش أبو طنوس ذكي أكتر من ابو حسين مثلاً؟»

لذلك قرّر الابتعاد عن اسماء تدلّ إلى طوائف أصحابها، كما ابتعد عن الإشارة إلى المناطق. يذكّر أنه قدّم نفسه إلى الجمهور كابن بلدة فنيدق التي يحبّها. «وكانت نائية في ذلك الزمان، وكان أبناؤها الطيبون ينقلون مزروعاتهم على ظهور البغال إلى المدينة، فيخرجون من منازلهم عند الثالثة صباحاً ليصلوا إلى طرابلس. ولأني أحبهم، أحببت أن أكون واحداً منهم»، لكن الأمر لم يعجب أبناء البلدة، التي ينتسب كثيرون منها إلى الجيش وقوى الأمن الداخلي. «كانوا يوقفونني على الحاجز، ويبدون احتجاجهم لأني أقع دائماً ضحية مقالب فهمان. فيقولون إنهم لا يسمحون لأحد بأن يستغفلهم». لذا، ولدت بلدة «حرش البلان». ضيعة غير موجودة على الخريطة، تخلو من حسابات طائفية ومناطقية في محاولة للهروب من الأمراض اللبنانية المستعصية.

هذه القرية البسيطة، نقلت إلى أبناء بيروت عام 1960 شخصيات طريفة بطباعها، وبلهجتها التي لفتت أنظار الكثيرين. ويتذكر أسعد، أنهم عندما غادروا محطة التلفزيون بعد العرض الأول الذي قدّموه «كان العشرات من الذين شاهدوا الحلقة قد تجمّعوا أمام المبنى ليتفرّجوا علينا». الانتشار الذي عرفته الفرقة في بيروت، لم يتحقق سريعاً في طرابلس، لأن إرسال التلفزيون لم يكن يصل إليها في ذلك الوقت. ربما وصلت الصورة عام 1964 ، وعندما دخل التلفزيون إلى المدينة «كان الناس يتجمّعون بالمئات حول الشاشة الصغيرة»، لكن الأهالي كانوا قد بدأوا يتداولون أسماء الفرقة. ومع هذا الانتشار، تحسّنت أعمال أعضاء الفرقة «درباس صارت محلاته تشتغل أكثر، وأبو نصرة كمان وقبله أخوه أبو الشباب». أما سعيد، الذي التفت باكراً إلى أن هذه المهنة لا تطعم خبزاً، فتفرّغ لعمله. «وقت اللي الواحد بيوصل لمرحلة بين لقمة الخبز والشهرة بيلعن أبو الشهرة» كما يخلص أسعد اليوم.

أسعد: نحكي اليوم عن 16 قتيلا ولا أحد يعرف من المرتكب

«مزيكا» الاشتباكات

على بعد أمتار من قلعة سان جيل الشهيرة في طرابلس، توقفت ثلاث فتيات للإجابة عن سؤال عن «درباس». هنّ لا يعرفنه، لكن مريم سمعت والدها يحكي عنه في البيت «قال لأمي إن ممثلاً من طرابلس توفي، وسمعته يحكي أن ظروفه كانت صعبة في أيامه الأخيرة». صديقتاها، رنا وسناء لا تعرفانه أيضاً، لكنهما سمعتا بفرقة «أبو سليم الطبل»، التي ينتسب معظم أفرادها إلى طرابلس.

تقرّر سناء، ابنة تكريت العكارية، أن تدير دفة الحوار «أتيتم إلى طرابلس للسؤال عن درباس؟ ألا تخافون؟». عيناها، اللتان تكشفان عن شخصية مشاغبة، تدلان إلى السخرية المرافقة لحديثها الذي تختمه بالقول «أنا شخصياً أخاف»، وتضحك، لكن عندما يصبح الحديث جدياً، تؤكد أنها تخاف. وتتمنى لو تنتقل للعيش في بيروت التي لا تعرف منها إلا منطقة الكولا، ومدينة الملاهي. برغم ذلك «هي اجمل من طرابلس»، ولا جدوى من إقناعها بالعكس.

رنا لا تعرف بيروت، لكنها تشكو من «مزيكا» الاشتباكات التي تخيفهم وتعطّلهم عن الدراسة، وهم في السنة الأخيرة من المدرسة. وكذلك يكرّر بائع القهوة، متحسّراً على أيام كانت فيها طرابلس تعجّ بالحياة «وباتت اليوم فزّاعة كلّ اللبنانيين». يقول، وهو يدلّنا إلى منزل أسعد «يكفي أنها قدّمت فرقة أضحكت كلّ اللبنانيين في زمن الحرب الأهلية، وهي تبكي وحدها اليوم».

منذ البدايات سئل تيزاني: لمَ أبو طنوس ذكي أكتر من أبو حسين؟ (مروان طحطح)